

موقع القيم من بعض فلسفات التربية

د. عبد الراضى ابراهيم محمد *

تشغل نظرية القيم علماء النفس والاجتماع والتربية ، ومن قبل هؤلاء جميعا الفلاسفة ، حتى ان بعض العلماء اعتبر القيم مصدرا أساسيا لأهداف التربية ، اذ أن هناك علاقة ضرورية بين القيم وأهداف التربية ذلك لأن أية أهداف تربوية ، ليست فى نهاية التحليل الا تعبيراً عن أحكام قيمية سواء كان هذا التعبير عن وعى أو عن غير وعى .

ومن هنا يأتى السؤال الرئيسى الآتى :

ما موقع القيم من بعض فلسفات التربية ؟

ويتفرع منه الأسئلة الآتية :

- ما المقصود بكلمة « قيمة » ؟
- ما مجالات استخدامها ؟
- ما الدواعى التى دعت الى دراسة القيم والتنظير لها ؟
- ما القيم فى الفلسفات الثلاث المختارة ؟
- لماذا يدرس المربون القيم ؟
- ما تصنيفات القيم ؟

حدود الدراسة :

تتناول الدراسة القيم فى فلسفات التربية الآتية :

المثالية ، والواقعية ، والاسلامية . وتستبعد البرجماتية ، اذ أفرد لها

(*) كلية التربية جامعة عين شمس .

الباحث مبحثا مستقلا . ولا تتناول الا القيم مستبعدة المباحث الأخرى من
فلسفة التربية كالطبيعة الانسانية . المعرفة والاهداف . الخ .

منهج الدراسة :

تستخدم الدراسة المنهج التحليلي الفلسفي .

خطة الدراسة :

ستتبع الدراسة فى سيرها الاجابة عن كل سؤال من الأسئلة المثارة
سابقا ، ولذلك ستنقسم الى :

١ - ويتناول بيان المقصود بالقيم لغة ومصطلحا ويعالج مجالات
استخدامها .

٢ - ويبين القيم فى فلسفات التربية المختارة بالدراسة ولماذا يدرس
المربون القيم ؟

٣ - ويقدم تصنيفات القيم .

٤ - خاتمة الدراسة .

١ - ما المقصود بالقيمة لغة ومصطلحا وما مجالات استخدامها ؟

المعنى اللغوى لكلمة : قيمة :

تأتى « قيمة لغة من قوم » قام المتاع (الشيء) بكذا أى تعدلت (١)
قيمته به ، اذا فالقيمة هى الثمن الذى يقاوم به المتاع أى يقوم مقامه » .

وشبيه بهذا المعنى ما نجده فى معجم انجليزى ، ان تعنى كلمة
value الشيء الثمين ، ذا الأهمية (٢) ، والفعل يثمن ، يقدر والفعل
اللاتينى valere يعنى القوة والشجاعة (٣) .

أما الدلول الاصطلاحى ، فنجد فى مجالات متعددة ، منها الاقتصاد ،
وعلم الاجتماع ، والسياسة ، والفنون ، والرياضيات والفلسفة ، والتربية .

— فعند علماء الاقتصاد حيث تعودوا تخصيص استعمال الكلمة لانفسهم ، نجدهم قد ميزوا القيمة فى الاستعمال ، والقيمة فى التبادل .
ومن ثم صارت « للقيمة » فى الاقتصاد نظرية ترتبط بنظرية الثمن أو السعر .
وانقسمت الى نوعين : قيم الانتاج ، وقيم الاستهلاك ، وما يتبع ذلك من مسألة العرض والطلب ، يضمهما عنصران أساسيان : المادة الأولية من ناحية العمل والجهد الانسانى من ناحية ثانية .

— اما فى علم الاجتماع ، فتعد القيم « حقائق أساسية هامة فى البناء الاجتماعى ، وتشترك أساسا من التفاعل الاجتماعى .

— أما فى الفلسفة فتعد جزءا من « الأخلاق » والفلسفة السياسية ، وتعتبر القيم مبحثا هاما سواء فى الماضى والحاضر .

وبعض العلماء يوسع من معانى المصطلح ، فيذكر أن للقيمة معنى :
انسانيا ، رياضيا ، وفنيا ، ومنطقيا ، ولغويا . وتوضيح ذلك على التوالى (٤) :

— المعنى الانسانى للقيمة : ويتمثل فى أنها هى المثل الأعلى الذى لا يتحقق الا بالقدرة على العمل والعطاء . ويستأنس هذا المعنى بما انطوت عليه الكلمة اللاتينية (Valere) من صفات القوة والصحة والشجاعة ، وهى صفات تعد من الفضائل الاخلاقية ، التى تدل على قيمة الانسان ، وتعد خاصية من خاصياته واذا ما فقدها ، فقد فضليته ، تماما كما تفقد الأشياء خاصيتها أى فضليتها ، مثل المغناطيس خاصيته الجذب اذا فقدها فقد فضليته ، وقوته المؤثرة ، وبناء على هذا ، تصبح قيمة الشيء أو الانسان دالة على صفاته الطيبة التى يتصف بها .

— أما المعنى الرياضى للقيمة : فيتضح فى أن علماء الرياضيات يستخدمون كلمة « القيمة » للدلالة على الكم لا الكيف ، وفى علم الحساب والجبر ، تقع هذه القيمة العددية بين الصفر واللانهائية .

— وأما المعنى الفنى لكلمة القيمة : فنجد أنها تجمع بين الكم والكيف فهى تعبر عن العلاقات الكمية التى بين الألوان والأصوات والاشكال ، فالقيمة الفنية بالنسبة للرسم تتألف من النسب بين الظلال والأضواء

والألوان وفى الوقت ذاته الأمر نفسه بالنسبة للموسيقا : أى تتكون من النسب بين الأصوات والانغام . ولا شك فى أن القيمة الفنية تقع فى حدود الزمان والمكان ، فالفنون التشكيلية تخضع للمكان كما تخضع الموسيقى للزمان .

— وأما المعنى المنطقى للقيمة ، فيتمثل فى اعتبارها معيار الصديق فى الاحكام المنطقية والاستدلالات العقلية ، اذ ان الاستدلال الصحيح هو ذلك الذى يكون مطابقا لقواعد العقل والمنطق .

— وأخيرا « القيمة » اللغوية : لا تعنى المعنى اللغوى للكلمة وانما تعنى قيمة اللغة ، وهى لا تتأتى الا فى كون الكلمات لها « قيمة » نحوية تبين معناها ودورها فى الجملة ، وأن الالفاظ لها دلالة قوية ، وتتسم بالعمومية ، والاعتراف من جميع الناطقين بها والمتواصلين عن طريقها ، ومن ثم يستقيم التفاهم بين الناس .

ويتضح مما سبق ، أن للقيمة معانى اصطلاحية تعددت بتعدد مجالات استخدامها فى النشاطات الانسانية ، وأن كل معنى من هذه المعانى يتخذ خاصية المعيار أو المحدد للمجال ، اذ يمكن أن يقال انه اذا فقد « قيمته » فقد معياره أو خاصيته . ولا أظن أن هذا التعدد يوهمنا بأن معنى القيمة اصطلاحيا فيه شئ من الغموض ، بل هو أدعى الى أن ينبهنا الى ما ينطوى عليه معنى « القيمة » من مستويات تجعل للقيمة « قيمة » فى سياق مجالها . ومن ثم برزت أهمية دراستها والتنظير لها . عند كثيرين من الفلاسفة المعاصرين لعدة من الحثثيات والمتغيرات .

القيمة فى الفلسفة :

لقد اقتنع معظم الفلاسفة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ان مهمتهم الملقاة على عاتقهم تتمثل فى بسط المبادئ المثالية ونشرها فى جميع مجالات المعرفة ، وتبعهم من الناحية المقابلة معظم العلماء — ما عدا المعتنقين للنظريات التطورية — فى ان واجبهم أن يعملوا على تغلغل مبادئ الميكانيكية فى تقسيم الظاهرات ، وعلى الرغم من هذا فان كلا من الفلاسفة والعلماء قد كانوا مذبذبين — فى نظر قلة من مفكرى تلك الحقبة — وذلك لأنهم

تجاهلوا تفرد كل انسان في المجتمع من حيث الخصائص التي يتميز بها ،
في أعماله وأفعاله ، وجهوده الخلاقة ، ولحظات حزنه وفرحه ، ووجهوا
جل اهتمامهم لوضع نظم فكرية صارمة • ولم يكن ثمة صوت أعلى من
صوت « نيتشه » (٥) - (١٨٤٤ - ١٩٠٠) يمثل تلك الأقلية من المفكرين ،
حيث ركز كل فلسفته على الانسان الفرد باعتباره كائنا ديناميا يناضل ليس
من أجل البقاء فحسب، بل أيضا هو سيد بيئته منوط به استثمارها وتسخيرها
لتحقيق أهدافه • ومن هنا فالانسان يمثل عند ارادة القوة ، وهذه الارادة
تمثل عند « نيتشه » : القيمة العليا • ولم يصل الى هذه القيمة الا عندما
قدم في فلسفته مشكلة القيم •

وأدى قيام الحرب العظمى الى زعزعة كثير من الافكار لدى المفكرين
الفلاسفة ورجال الاقتصاد ، وراحوا يبحثون في موضوع « الخير والحسن ،
والشر ، والقبيح ، وأطلقوا على هذا « قيمة » وترتب على هذا مراجعة كثير
من المسلمات الفلسفية ورفض كثير من القيم التي كانت سائدة في حياة
الغرب ، وجهت حركة السياسة والاقتصاد •

وهكذا ظهرت نظرية « القيم » أو « علم القيم » أو ان شئت فلسفة
القيم « Axiology • وكثيرون من الفلاسفة يعزون ظهور هذه الكلمة
« اكسيولوجي » الى الفيلسوف الالماني « نيتشه » بينما يرى آخرون ان أول
من استعمل هذا المصطلح فيلسوف أمريكي يدعى « أوربان » (٦) •

ومهما يكن الأمر ، فان « علم القيم Axiology » أو نظرية
القيم « مبحث من مباحث الفلسفة ظهر حديثا • واستخدم في الفلسفة
القديمة والحديثة على السواء •

و « علم القيم » أو نظرية القيم مهمتها تنحصر في القيام بعملية تحليل
المفاهيم وتنظيمها ، وذلك بالبحث في طبيعة القيم وأنواعها ، ومعاييرها ،
وتعتبر وثيقة الضلة بعلوم المنطق والاخلاق والجمال والالهييات • وعلم
الاجتماع (٧) •

وظهرت بعد ذلك أعمال الفلاسفة والمفكرين في البحث عن جذور البناء
القيمي في الفلسفات القديمة « ووضعت لها التصنيفات الخاصة بها • وفقا

لعلم القيم أو نظرية القيم ، فماذا نحن واجدون بالنسبة لكل فلسفة من الفلسفات الثلاث ؟

٢ - القيم فى فلسفات التربية الثلاث :

أولا : فلسفة التربية المثالية :

تمتد هذه الفلسفة فى جذورها الى أفلاطون وحتى المثالية الحديثة ، تعتمد فلسفة التربية المثالية على الاساس القيمى الذى وضعه أفلاطون متمثلا فى عالم المثل ٠٠ أو « عالم القيم » ويتميز هذا العالم بأنه (٨) :

- عالم أولى Appriori — بمعنى سابق على الوجود المحسوس .
- عالم مطلق ثابت أزلى ٠٠
- تم تحديده اما بواسطة قوة الهية ، أو عقلانية الانسان .
- عالم مجرد متسام ويدرك بالعقل أو التصور أو الحدس الجدلى ويبقى عالم القيم المجرد المتسامى (المثل) أكثر « حقيقة » من التصور أو السلوك ٠٠ والتصور والسلوك يسعيان جاهدين الى الاقتراب من القيمة فى عالم المثل ٠٠

ويجمع عالم القيم المثالى مثلث افلاطون المعروف الحق — الخير الجمال ٠ ٠ أو مثلث القيم العليا ٠٠ فقيمة « الحق » لها ثلاث مستويات (٩):

(أ) صفة عينية كامنة فى طبيعة الاقوال وبالتالى يصبح الحكم بصواب القول أو خطئه ثابتا لا يتغير .

(ب) ما طابق القواعد والمبادئ الأخلاقية .

(ج) ما طابق الواقع أو ما يبعث على التسليم لوضوحه وتميزه ومطابقته للمبادئ العقلية .

وأما قيمة « الخير » فهى صفة كامنة فى طبيعة الافعال (السلوك) ومن ثم تكون ثابتة لا تتغير ٠٠ والخير ضد الشر ، ويراد به كل ما يبعث

على الرضا والاستحسان لكماله فى نوعه ، أو للملامته أو لفائدته أو لاتفاقه مع الأوامر الالهية ٠٠ ، والخير والشر من المعايير الكبرى للقيم الاخلاقية .

وأما القيمة الثالثة : « الجمال » فهى صفة قائمة فى طبيعة الاشياء ومن ثم فهى ثابتة لا تتغير ، ويصبح الشئ جميلا فى ذاته ، أو قبيحا فى ذاته بصرف النظر عن ظروف من يصدر الحكم (١٠) .

ويتضح مما سبق أن القيم العليا الثلاث ٠٠ كائنة فى طبيعتها ثابتة لا تتغير بتغير الظروف الوجودية والملابسات ، مطلقة ، لها كينونتها فى الوجود الخارجى ، سواء وجد على الأرض انسان أو لم يوجد ، وهى بطبيعتها اذن متعالية فى عالم المثل ٠٠ وفقا لهذه الفلسفة يصبح « الانسان حامل القيم carrier of values الذى يأخذ على عاتقه مهمة تحقيق الغاية الالهية على الأرض (١١) ، بمعنى أن الانسان هو همزة الوصل الوحيدة بين « الواقعة أو الحدث » و « القيمة » فهى الجسر الحقيقى الذى تعبر فوقه الطبيعة لكى تتحول الى « ملكوت قيم » .

ومعنى ما سبق أن القيم فى المثالية تمثل ما يجب أن يكون "ought to be" والفعل الانسانى « السلوك » يمثل « ما يجب أن يفعل "ought to do" ، ومهما حاول الانسان اتيان ما يجب أن يفعل ، فان ما يجب أن يكون يبقى مطلقا « مثالا » ، بمعنى أن القيم فى المثالية أو الواجب أن يكون « تنسم بالاطلاق ٠٠ فالقيمة كجوهر مثالى روحى أولى ، يؤثر ولا يتأثر ، لأن القيمة مفارقة الزمان والمكان (١٢) .

ظلت - ومازالت - القيم المشتقة من الفلسفة المثالية قديمة وحديثة تشكل مصدرا تشتق منه أهداف التربية ، وتكون ما يطلق عليه التربية الخلقية "Moral Education" وانعكس ذلك على عناصر العملية التعليمية والتربوية ، بهدف تمكين القيم من المتعلم ، بحيث تكون بمثابة الضابط والموجه لسلوكه ، وكلما اقترب فى سلوكه من « المثال » القيمى كلما كان انسانا مثاليا .

واذا ما حاولنا تدقيق النظر فى القيم كما جاءت فى المثالية نجدها تقسم العالم الى عالمين - كما يذكر محمد الهادى عفيفى فى أكثر من موضع -

عالم مثالى علوى ، وآخر واقعى هابط ٠٠ وتشير الى ان القيم العليا لها حق السيادة ، ومن ثم فهى هدف للنظريات الاخلاقية ، لأنها ثابتة أزلية وخالدة ، ولا يستطيع أن يصل اليها الا العقل المتسامى على كل ما يتصل بشهوة الانسان ٠٠ أما ما يجرى فى هذا العالم المادى ، فانه مضطرب متذبذب متغير لا يمكن التحقق من صدقه ، كما لا يمكن اعتباره مصدرا لتوجيه السلوك ، فالصدق والكذب كلاهما خاصيتان قائمتان ساكنتان فى الأشياء ذاتها ، أما « الحقيقة » السامية فهى « الوجود » الحق ، وأما « الحقيقة » الوضعية الناقصة « فوجود » باطل « لأنها تدعى الحقيقة التى لا تستطيع أن تثبت صحتها وصدقها (*) » .

ثانيا : فلسفة التربية الواقعية :

بينما فيما تقدم ، كيف أن القيم عند « د عاة » المثالية ، كانت تحتل الأولوية المطلقة ، وانها سابقة على الوجود الواقعى ، بل وتأتى فوقه ، ومستقلة عنه ، وانها تدخل فى باب « المفهومات » والتصورات الميتافيزيقية فى العقلية ، وانها محددة سلفا ، أما عن طريق مصدر الهى أو عقلى ، ومن ثم متسمة بالثبات والاطلاق ، والخلود ، والاستمرار ، وانها متسامية لكونها تقع هذا الموقع المغرق فى مثاليته بعيدا عن العالم المادى ، وظل الأمر كذلك منذ ان وضع افلاطون مثلثه القيمى المعروف ، الذى ظل غالبا على تاريخ الفلسفة ، الى أن ظهرت الواقعية والواقعية ضاربة بجذورها فى التاريخ الفلسفى للفكر البشرى ٠٠ وتجدر الاشارة الى أن الواقعية تكاد تكون على الاقبيض من المثالية من حيث وضع القيم ، فنقول « تكاد » لأنها بداية تطورها ، قالت بأن القيم خالدة ومستمرة وثابتة وعامة ، بمعنى أن القيم من وجهة النظر الواقعية فى بدايتها معايير خلقية تحكم حركة الانسان فى عمومها ، وترجع بداية هذا التطور الحديث للتيار الواقعى منذ أن بدأ

(*) راجع لمزيد من التفصيلات :

- محمد الهادى عفيفى - فى أصول التربية - الأصول الفلسفية للتربية ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ص ٤٢٢ - ٤٣٠ .
- محمد لبيب النجى ، فلسفة التربية ، القاهرة ، ١٩١٦ ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٧ .

« ايمانويل كانط I. Kant » (١٢) النظر الى القانون الاخلاقى على انه من مدلولات العقل ، أى أن هناك مجموعة من القيم مثل قيمة الحرية ، والله ؛ لا يمكن تبريرها عمليا ، ومع هذا فانه للدواعى العملية أى الفعل الاخلاقى ، فان هذه القيم يجب أن تفترض مسبقا ، و « كانط » بقوله هذا وضع أولا : أولوية الحاجة العملية والتي بالنسبة له أكثر نفعا - فوق المفاهيم النظرية للعقل . وثانيا : الغى امكانية وجود مكانة ميتافيزيقية للقيم والتي تنتمى دائما الى مجال المفاهيم أو التصور العقلى أو العقل النظرى .

ويعتبر التطور الحديث لدراسة القيمة منبثقا من « كانط » الذى وضع بداية لتطور هذا المبحث فى سياق تطور التيارات الفلسفية الرئيسية .

ولعله من المعروف أن الواقعية تشمل فيما تشتمل : الطبيعيين Naturalists والتجريبيين Empiricists ، وغيرهم ، ويرى هؤلاء جميعا أن القيم يستدل عليها عن طريق التجربة والحس . وذلك لأنها نابعة من الواقع المحسوس ومن ثم فهي متغيرة ونسبية ، ويمكن قياسها باصطناع وسائل علمية وبحثية ، وما يطلق عليه « قيمة » ليس الا حقيقة موضوعية (١٤) ، قابلة للتقصى والبحث والتحديد كأي موضوع ما دى قابل للبحث فى العلوم الطبيعية ، وتصبح القيم ، بناء على هذا ، « فعلا اجتماعيا » له ضوابطه ومقاييسه ومواقفه العملية عندما يتفاعل الانسان ومعطيات الواقع (١٥) .

ولعله من الواضح أن هذا التيار مهد الطريق الى ادخال القيم فى مباحث علم الاجتماع وبخاصة فيما عرف بعلم اجتماع القيم من أوسع أبوابه .

وصارت القيم بذلك قيما اجتماعية حافزة للانسان على العمل ، ومولدة قيما أبعد منها وهكذا .

وفى سياق تطور الواقعية ظهرت الواقعية الجديدة فى أوروبا وأمريكا الشمالية . . . وظهر لها دراسات فى مجال نظرية القيم محكومة بمبادئها . . . فهم يرون أن (١٦) .

(أ) الطبيعة ووجود الأشياء مستقلان عن معرفتنا ٠٠

(ب) أن ما نخبره من خصائص الأشياء ليست في حقيقة الأمر
الا خصائص الشيء ذاته ٠٠

(ح) ان الأشياء (الموضوعات) وخصائصها معروفة بطريقة مباشرة
وقد انعكست هذه الاتجاهات الحياتية للواقعية على القيم بدورها ٠

والأمر الذى لا شك فيه أن هذه الفلسفة اتخذت لنفسها نظرية قيمية
لتكون أساسا للتربية الخلقية مثلما فعلت المثالية ٠

ثالثا : فلسفة التربية الإسلامية :

من المسلمات المتفق عليها ، أن الدين الإسلامى ينزع الى الشمول ،
سواء من حيث تجاوزه للمكان - شبه جزيرة العرب ، فلم يأت خاصا بهم
بل للناس كافة ومن حيث شمولية تطبيقه - نظاما وتنظيما وقواعدا
وتشريعات - على جميع نواحي الحياة ، فردا وجماعة ، ثم أنه شمل أيضا
حيات الانسان الدنيا ، وحياته فى الآخرة ، والعلاقة بينهما ترتيبية ، فكيفما
يكون العمل فى الدنيا ، تكون النتيجة فى الآخرة ٠٠

فهو دين موجه للناس كافة ، لا فرق بين عرب وعجم ، وحنس وحنس
« وما أرسلناك الا كافة للناس » (سبأ آية ٢٨) ، « وما أرسلناك الا رحمة
للعالمين » (الانبياء ، آية ١٠٧) ٠

والفلسفة الإسلامية ليست كغيرها من الفلسفات تعتمد على منطلق
فلسفى من نتاج كدح وقدح العقل البشرى ، وانما تتخذ منطلقها من القرآن ،
والسنة الصحيحة ، واجتهاد العلماء والفقهاء باختلاف مدارسهم وعصورهم ،
معتمدة على هذين المنطلقين اللذين يمثلان فى نهاية التحليل منطلقا واحدا ،
ذلك لأن السنة الصحيحة شارحة وموضحة لما جاء فى الكتاب ٠٠ عليكم
بكتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل
ليس بالهزل ، ومن اتبع الهدى فى غيره أضله الله ، ومن دعا اليه هدى الى
صراط مستقيم » ٠

ومنذ البدء كان الاسلام حياة وحركة ، يشق طريقه ويبحث مبادئه وقيمه فى مجتمع مغاير تماما لما جاء به ، ومن ثم يكون فى مجموعه نظاما اجتماعيا له قيمه ومعاييره ، فما القيم التى تضمنتها الفلسفة الاسلامية التى سادت وسيطرت بدلا من القيم التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى ؟

تصنيف القيم فى فلسفة التربية الاسلامية :

العلم ، والعمل ، والتقوى ، والعدل .

★ العلم (١٧) : لا نجد كبير مشقة فى أن نستدل على قيمة « العلم » فى الفلسفة الاسلامية ، فما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث التى نوهت بقيمة العلم وأهميته فى بناء الحضارة الاسلامية .

★ علم الانسان ما لم يعلم . بعد تمكينه من أدوات ومفاتيح العلم ، قراءة ، وكتابة « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم » .

والمستقرىء للتاريخ الحضارى للمسلمين يلحظ ما يكاد يقترب من القانون أنه كلما سادت قيمة العلم ، متآزرة والقيم والأخرى - ازدهرت الحضارة الاسلامية ، وكلما انحسرت وتضاءلت قيمة العلم بسبب عوامل وتغيرات - دب الوهن والضعف فى البناء الحضارى .

والعلم كقيمة يدفع الى التعلم فيكون ثمة عالم والعالم يعلم غيره « . . وهكذا ، ونتج عن هذا أن عرف المسلمون نوعين من العلم ، علوما شرعية وأخرى تتعلق بالحياة المعاشية . .

فأما العلوم الشرعية فكانت متمثلة فى القرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم اللغة ، والتاريخ . .

وأما العلوم المتعلقة بالمعاش فكانت الرياضيات من حساب وهندسة وفلك وموسيقا ، وطب وكيمياء ونبات وحيوان . .

ولقد اتخذت قيمة العلم فى الحضارة الاسلامية طبيعة اجتماعية ، فكما سبقت الإشارة ، اذا حدث اهتمام بالعلم كقيمة وبالتالى العلماء كانت قيمة

دراسات تربوية

العلم رفيعة - والعكس صحيح ٠٠ وإية ذلك ، عندما وجه الغزالي للفلسفة والرياضة والطب وما الى ذلك من علوم الطبيعة ، اللقند تدنت قيمة العلم والفلسفة وبالتالى تدهورت الحضارة الاسلامىة .

وكانت لها قبل ذلك مكانة - أى قيمة العلم - سابقة ومثالنا على ذلك « أبو نصر الفارابى » عندما كان يحظى بمكانة بارزة عند سيف الدولة. حظيت الموسيقى التى وضع لها أصولها والفلسفة التى كان علما فيها بمكانة رفيعة وغيرها من العلوم .

ويمكننا أن نرجع الى عصر المؤمنون لنرى كيف ان احتفاله واهتمامه بالعلم والفلسفة ادى الى ازدهار حركة الترجمة من تراث اليونانية وغيرها من الحضارات البارزة الى العربية ، فكان ازدهار وتوليد فكر وخبرات ذات سمات اسلامية .

ولكن السؤال الآن ٠٠ هل القيمة هنا - قيمة العلم - فى حالة تذبذبها، مردها الى الدين الاسلامى ، أم الى مواضع اجتماعية وثقافية ؟ (١٨)

الثابت - نصا - الاعلاء من قيمة العلم نظرا وتطبيقا كما سبق وأشرنا ٠٠ وعندما نتحدث عن الفلسفة الاسلامية ، فنحن نتحدث عن فكر ومجتمع وتفاعل بينهما ومن ثم يختلف النظر الى قيمة العلم ، واختلف بالفعل من عصر الى عصر ٠٠٠ ومن نظام اجتماعى سياسى اسلامى الى آخر وثمة وراء كل هذه عوامل وعوامل ٠٠٠ بعضها داخلى وبعضها خارجى (١٩) ٠٠ وهذا مبحث آخر ليس هنا مكانه ولا آوانه !!

ويمكننا - على أية حال - ان نخرج ببعض الملاحظات : -

— أن قيمة العلم والعلماء احتلت مكانة بارزة فى الحضارة الاسلامىة .

— أن قيمة العلم والعلماء خضعت للتفضيل ، بمعنى ارتفع شأن علوم ، وانخفض شأن علوم ٠٠

ان النص حدد القيمة بأنها النظر العلمى فى شئون حياة المسلمين

دنيا ودين ، وعندما أصيبت القيمة - قيمة العلم - بخلل فى تركيبها أو طغيان جانب على جانب أصيب المجتمع الاسلامى بالخلل ذاته والعكس صحيح .

كان ذلك موجزا - أرجو أن يكون دالا ومفيدا - عن قيمة العلم على التيار الاسلامى . . .

والآن ننتقل الى قيمة العمل . .

كما اتخذت قيمة العلم مكانة عليا فى الدين الاسلامى - على مستوى النصوص ، وتذبذب مكانها بين العلو والتدنى فى الممارسة ، اتخذت قيمة العمل ، مكانة عالية فى النصوص ، وكان أمرها أمر سابقتها من حيث الممارسة والتطبيق

فما مكانتها ؟

جاءت « قيمة العمل » فى مقدمة القيم ، ولم تكن مكانتها أقل من قيمة العلم ، وانما هى مرتبطة به ، ذلك لأن أى علم يتعلمه المسلم يصبح مجردا ، اذا لم يتحول الى عمل . . فالعلم والعلم قيمتان متساندتان ، احدهما على الأخرى ، ولو أحصينا الآيات التى ترددت فيها كلمة العمل ومشتقاتها . . لوجدناها من الكثرة بحيث أنها لتوحى اليك بأن الاسلام دين علم وعمل وما يرتبط بهما من قيم تضبطهما ، كما سترى بعد قليل .

فلا ايمان بغير عمل . . ولا علم بغير عمل . . وقيمة العمل ذات بعدين فى فلسفة التربية الاسلامية ، تماما مثل قيمة العلم - بعد دنيوى وبعد دينى والبعدين أيضا متساندان ، ولذلك فثمة قيم تحكم قيمة العمل اجرائيا ان جاز أو صح التعبير . . مثل الاتقان ، والأمانة ، والصدق ، وما الى ذلك من قيم ملازمة لقيمة العمل . . .

وكثيرا ما جات قيمة العمل فى صورة بعيدة عن مادة « ع م ن » ومشتقاتها . . انظر قول الله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون » (الاعراف ، آية ١٠) وقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض نلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وأليه النشور » (تبارك آية ١٥) .

والفلسفة الاسلامية فى منطلقها هذا لقيمة العمل تلغى الثنائية تماما بين العمل والفكر ٠٠ العمل فى الدنيا يؤدى - ان تم وفقا لضوابط الحلال والحرام ، والطيب والخبيث ، - يؤدى الى صلاح صاحبه فى الآخرة ، ويتبوأ مكانه فى يوم النشور - القيامة - حيث الحساب ٠٠ الملائم وفقا لما قدمت يداه ٠٠ ان كان خيرا فخير ، وان كان شرا ، فجزاؤه عند ربه ٠

اذن نخلص من ذلك الى ان قيمة العمل محكومة بمجموعة من القيم الضابطة لها ، قيم خلقية مصدرها الحدود والاحكام الشرعية ٠٠ كالاتقان ، وصلاح العمل ٠٠ من أمانة وصدق ، وزيارة منك لما خلفه المسلمون فى مصر الاسلامية من اثار توقفك على ما كان وراء هذه الأعمال من دقة واتقان وصبر ومثابرة وكيف عبرت عن ثقافة أمة وحضارة قوم ، كونت فلسفة التريية الاسلامية موجهات سلوكهم ٠٠

وهناك - فى شبكة القيم فى فلسفة التربية الاسلامية - قيمة «التقوى» فما التقوى ؟ كما سبق وأشرت أن العلاقة بين القيم فى الفلسفة الاسلامية علاقة تساند وتشابك ٠٠ وبناء عليه فان قيمة التقوى تمثل ركيزة أساسية لقيمة العمل ٠٠ والتقوى بمثابة المعيار الذى يقاس العمل به واليه ٠٠٠ فهى فى الشريعة تعنى صون الانسان لنفسه من الاتيان بأفعال تجب المعاقبة عليها ، أو ترك أفعال يثاب عليها ان فعلها ويعاقب لتركها (٢٠) ٠

والتقوى فى النص القرأنى ترتكز على دعائم ثلاث : الايمان بالغيب ، اقامة الصلاة ، الانفاق مما رزقهم الله ٠٠ قال تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (البقرة آية : ٣) وكما ترى هذه الدعائم كلها اجراءات وأفعال ، الصلاة فعل وصلة بالله ٠٠٠ ومن قبلها الايمان بالغيب ٠ اجراء ادراكى - ان صح التعبير للذات العارفة « الله » ٠ والانفاق « تراصل اجتماعى سلوكى ٠٠ تكافلى ٠٠٠٠ اذن هى قيمة موجبة ، وضابطة فى الوقت نفسه لقيمة العمل ٠٠ بل هى ركيزة أساسية يستند عليها العمل ٠٠ ويتحرك صوب الهدف بها ووفقا لها (٢١) ٠٠

ولعلنا نتوصل الى نتيجة مؤداها أنه ، كلما سادت التقوى - كقيمة - اعمال المسلمين أدى ذلك الى وجود وتواجد المجتمع الاسلامى المزدهر

القوى ٠٠ والعكس ٠٠ صحيح !! ويذهب أحد الثقاة الى اعتبار قيمة التقوى
فى الفلسفة الاسلامية على رأس منظومة القيم (٢٢) ٠٠

وبعد أن انتهينا من قيمة التقوى ، نأتى الى : قيمة العدل .

القيمة العليا للعدل ، تتمثل فى العدل الالهى ٠٠ والعدل نقيض الظلم
أو الجور ، أو التعدى ، وما أكثر الآيات الدالة على ذلك .

وقيمة العدل فى الاسلام ذات مضمون اجتماعى ، وبعض المذاهب
الاسلامية فى الفكر الاسلامى وضعت العدل على قيمة المبادئ (المعتزلة)
وكانت خمسة مبادئ . وعندما صارت هذه القيمة حية ، بمعنى اجرائية
عند عمر بن الخطاب ، كان المجتمع الاسلامى آمنا والحاكم آمينا فأمننا ٠٠
« حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا همر !! » ، وهذه القيمة لا تستثنى من قانون
التساند القيمى فى التيار الاسلامى ٠٠ « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا
الله » . قيمة العدل اذن - اجراء وممارسة - تفضى الى التقوى أو هى محكومة
بها ٠٠ مثل العمل تماما ٠٠

وقيمة العدل ٠٠ تعمل على مستويات ٠٠ الفرد عندما يكون وسطا أو
نصفيا فى حياته ، ذلك أن العدل ينطوى على « النصف » ، وعلى مستوى
الأسرة ، وعلى مستوى الجماعة ، وعلى مستوى الحاكم ٠٠

وما سقت هذه المجموعة من القيم على سبيل الحصر ٠٠ ولكن على
سبيل التمثيل ٠٠ ذلك لأن هذا المجال واسع وعميق ويستحق دراسة تتوغل
لها أسباب ووسائل ٠٠ ومكان أوسع من هذه المساحة ٠٠ وفيها مباحث
كثيرة وشواهد أكثر من التاريخ الثقافى للامة الاسلامية .

وليس أصدق دليل على ما قلت من ذلك الفيض من البحوث والدراسات
التي عمدت الى دراسة العلاقة بين الدين والقيم ، وما لـه من تأثير فى
« النسق القيمى » وظهور ما يطلق عليه « علم الاجتماع الدينى » (٢٣) ذلك
أن القيم فى فلسفة التربية الاسلامية ، ذات مضمون اجتماعى وأنها تؤثر
تأثيرا واضحا على انساق القيم الأخرى فالنظم السياسية فى تاريخ الحضارة
الاسلامية - وفى فترات ازدهار كانت مؤسسة على القيم الدينية ، سواء

فى ذلك التعليم والاقتصاد والحرب والسلم والعلاقات الاجتماعية والفنون والآداب والعلوم ٠٠ وما الى ذلك من عناصر البناء الحضارى للامة ٠٠ ممثلة - أى القيم الدينية - ممارسات ضابطة للسلوك الانسانى تدعيما وتعزيزا للبناء الحضارى ٠٠

ولعلنا يمكن أن نخلص مما سبق الى أن القيم فى التيار الاسلامى ، اتسمت بالشمولية ، والتكامل والتساند فيما بينها ، وبالاستجابة لمقتضيات مطالب التطور الاجتماعى (الاجتهاد) فهى لم تكن قطعية أو جامدة ٠٠ مادامت مطالب التطور هذه لا تعطل حدا ، أو تنتهك تشريعا منصوصا عليه - ودليلنا على ذلك حركات الاصلاح الاجتماعى والحضارى فى الثقافة الاسلامية لنقف على اجتهاد الثقافة من روادها ٠٠ فيما حاولوه من وضع اطار قيمى ينتشل الأمة فى فترات ضعفها من هذا الضعف أو التدهور(*) ٠٠

وبعد فراغنا من القيم فى فلسفات التربية الثلاثة نخلص الى نتيجة مؤداها ٠٠٠ ان جميع هذه الفلسفات مثالية وواقعية واسلامية ، اعتبرت القيم بمثابة معايير تقوم بتوجيه وضبط سلوك الفرد نحو مجتمعه ونحو بيئته ، ويختلف موقف الفرد من هذه المعايير باختلاف المنطلقات العلمية التى انطلقت منها ٠٠ فبعضها ، يجعل الانسان نفسه أمامها مجرد منفذ لها ، وليس له الحق فى مناقشتها ، وممثل لها - وبعضها أعطى الانسان حق الاختيار ٠

وما دام الأمر كذلك فإن القيم بصورتها التطورية هذه ، تحمل مضامين اجتماعية ، كما أنها قابلة للتعلم والاكتساب ، ذلك لأنها فى نهاية التحليل تعد أهدافا تربوية ، وعلى هذا الأساس يحسن أن ننظر اليها نظرة اجتماعية ، والمسوخ لهذا أن التربية عملية اجتماعية ولعل هذا يقضى بنا الى الحديث عن المفهوم الاجتماعى للقيم فما هو ؟

يرى المفهوم الاجتماعى القيم أنها ، الحكم الذى يصدره الانسان على شئ ما مهتديا بمجموعة المبادئ والمعايير التى وضعها المجتمع الذى يعيش فيه والذى يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك (٢٤) ٠

والقيمة تتضمن قانونا أو مقياسا له شئ من الثبات على مر الزمن
ينظم نسق الافعال والسلوك .

وما دامت القيم معايير اجتماعية ، تعتمد على التفضيل ، اذن ما
تصنيفاتها من المنظور الاجتماعى ؟

بعد أن تقدمت دراسة القيم فى علم الاجتماع القيمى أمكن اصطناع
مقاييس وأدوات ، وأجريت دراسات أجنبية كثيرة ودراسات مصرية ،
وخرجت الينا بتصنيفات للقيم .

من بين هذه الدراسات دراسة « البرت وفيرون » واستخدما فيها
اختبارا بنياها على مسلمة مؤداها أن بعض المهارات تعكس أفكار الناس
وأفعالهم ، ومن ثم قيمهم . وتوصلا الى وضع تصنيف للقيم - بناء على
الدراسة ، على الوجه التالى (٢٥) :

- | | |
|--------------------|------------------|
| ١ - قيم نظرية . | ٤ - قيم سياسية . |
| ٢ - قيم اقتصادية . | ٥ - قيم دينية . |
| ٣ - قيم جمالية . | |

ولكل قيمة من القيم السابق تصنيفها معنى أو مفهوم .

فالمقيم النظرية تعنى : اهتمام الفرد وميله الى اكتشاف الحقيقة ،
وسبيله الى ذلك الاتجاه المعرفى من العالم المحيط به ، يوازن بين الاشياء
على أساس ماهيتها ، ويسعى الى معرفة القوانين التى تحكم هذه الأشياء ،
دون النظر الى قيمتها العملية أو الى صورتها الجمالية ، لذلك نجد أن
الاشخاص الذين يضعون هذه القيم فى مستوى أعلى من مستوى غيرها من
القيم ، يمتازون بنظرة موضوعية نقدية معرفية تقييمية ، وهم عادة يكونون
من الفلاسفة والعلماء .

وأما القيم الاقتصادية : فالمقصود بها ميل الفرد واهتمامه الى ما هو
نافع وفى سبيل ذلك يتخذ من العالم المحيط به وسيلة يحصل بها على الثروة
وزيادتها عن طريق الانتاج والتسويق والاستهلاك واستثمار الأموال ،

وأصحابها يمتازون بنظرة عملية ، تقوم الأشياء تبعاً لمنفعتها ، وعادة ما يكونون من رجال الأعمال والمال .

وأما القيم الجمالية : فتعنى اهتمام الفرد بكل ما هو جميل من ناحية الشكل أو التوافق ، وهو ينظر - لذلك - الى العالم المحيط به نظرة تقدير له من ناحية التكوين والتنسيق والتوافق الشكلى . وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء من الفنانين المبدعين ، وانما لديهم القدرة التذوقية للجمال والفن .

وأما القيم السياسية : فيقصد بها اهتمام الفرد بالحصول على القوة بهدف السيطرة والتحكم فى الاشياء أو الاشخاص ، أى يتصفون بقدرتهم على توجيه غيرهم والتحكم فى مصائرهم .

وأما القيم الدينية : فالمقصود بها اهتمام الفرد وميله الى معرفة ما وراء الطبيعة أو العالم الظاهرى ، فهو راغب فى معرفة أصل الانسان ومصيره ويرى أن هناك قوة تسيطر على العالم الذى يعيش فيه ، ويحاول أن يربط نفسه بهذه القوة بصورة ما ، ولا يعنى ذلك أن الذين يمتازون بهذه القيم من النساك والزاهدين ، فأكثر الناس يجدون اشباع هذه القيمة فى طلب الرزق والسعى الى تحقيق أهداف اقتصادية وانسانية ..

وليس معنى ما تقدم من تصنيف ، ان الناس يتوزعون تبعاً له وانما يعنى أن هذه القيم توجد جميعها فى كل فرد ، وتختلف فى ترتيبها من فرد الى آخر قوة وضعفا لدى الفرد نفسه ولدى مجموعات الافراد وهو ما يطلق عليه النسق القيمى أو السلم القيمى .

فما المقصود بالنسق القيمى ؟ يقصد به الترتيب الهرمى للقيم عند فرد ما أو جماعة ، ويكون بذلك مجموعة من المعايير التى يصبح بها السلوك القيمى معقولا ، ويربط الفرد بهويته والمجتمع بتقاليده ، بحيث تكون العلاقة بينهما واضحة ومنظمة ، سواء كانت هذه المعايير والمبادئ معلنة أو ضمنية وكل مجتمع يتضمن قيما بعينها ، يعمل من خلال مؤسساته المختلفة على دوامها واستمرارها .

ومهما تعددت منطلقاتها ليست الا قيما خلقية أو اخلاقية تسعى المؤسسات المعنية الى تعميقها لدى الناس . والتربية كمؤسسة اجتماعية يقع عليها العبء الاكبر فى تحقيق هذه المهمة :

فكيف يتم ذلك ؟ وما الوسائل الملائمة لتحقيقه ؟

وما العلاقة بينها وبين المؤسسات الأخرى ؟ من هنا تبدأ الخاتمة .

— ان المجتمع كله مسئول عن تحقيق القيم واكسابها للاجيال الناشئة من خلال سلوك أفراده اليومي .

— ولعل هذا يؤكد — بما لا يدع مجالا للشك — أن غرس القيم وتنميتها ليست وظيفة معلم التربية الدينية بمفرده ، بل وظيفة جميع المعلمين شعروا بذلك أم لم يشعروا . ووظيفة جميع مؤسسات المجتمع متكاملة مع المؤسسة التربوية أى المدرسة ، وليست المدرسة وحدها .

ومظاهر الصراع القيمي الموجودة فى مجتمعنا يمكن أن نجد منها وتوجهها التوجيه السليم لو أن التربية بمعناها النظامى وغير النظامى ولو أن المدرسة بمناهجها داخل الفصل وخارجه أولت القضية ما تستحقه من اهتمام . . .

ولو حاولنا أن نضع نظرية قيمية للتربية تستمد أصولها من فلسفة التربية الاسلامية مع ملاحظة أن القيم الاسلامية فى صميمها شمولية النظر وترفض كل تجريد أو ثنائية .

ربما تفتح هذه الدراسة الباب الى بحث جديد يبدأ بسؤال الى أى مدى يمكننا أن نستخلص نظرية للقيم التربوية تراعى المنبع الحضارى الاسلامى ومعطيات الواقع .

(دراسات تربوية)

المراجع والهوامش

- ١ - المصباح المنير ، مادة (قوم) ص ٧١٤ .
2. The Concise Oxford Dictionary, 1979, p. 1285.
- ٣ - نازلى اسماعيل حسين ، **فلسفة القيم** ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت
٠ د ت ، ص ٣٢ .
- ٤ - المرجع السابق نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .
5. Butler, J. Donald ; **Four Philosophies and Their Practice in Education and Religion**, New York, 1957, p. 206.
- ٦ - نازلى اسماعيل حسين ، **مرجع سابق** ، ص ٣٢ .
- ٧ - رالف بارتن بيرى ، **أفاق القيمة** ، (ترجمة : عبد المحسن عاطف
سلام) ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢١ .
7. Butler, J. Donald, op. cit., p. 132.
وانظر أيضا لمزيد من التفاصيل :
جورج . نيلر ، **مقدمة الى فلسفة التربية** ، (ترجمة نظمى لوقا) ،
القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٩ - ٤٤ .
وراجع أيضا ، محمد أحمد بيومى ، **علم اجتماع القيم** ، اسكندرية
دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ٤٦ .
- ٩ - جمهورية مصر العربية ، مجمع اللغة العربية ، **المعجم الفلسفى** ،
القاهرة ، المطابع الأميرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٥١ .
- ١٠ - وانظر فى المصدر السابق نفسه ، ص ص ٦٢ ، ٨١ .
- ١١ - زكريا ابراهيم ، **المشكلة الخلقية** ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ط ١
١٩٨٠ ، ص ٧٢ .
- ١٢ - محمد أحمد بيومى ، **مرجع سابق** ، ص ٥٢ .
13. Brubacher, Johns, **Modern Philosophies of Education**, Bom-
bay, 1969, p. 348.

14. Butler, J. Donald, op. cit., 334-54.

15. Rokeach, Milton, *The Natur of Human Values*, New York, The Free press, 1973, p. 5.

١٦ - جورج .ف. نيلر ، مرجع سابق ، ص ص ١٤ ، ١٥ .

١٧ - يراجع فى هذا الصدد :
سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار
الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ ، الفصلان الاول والثانى .

١٨ - عبد الفتاح جلال ، من الأصول التربوية فى الاسلام ، سرس الليان ،
مركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، ١٩٧٧ ،
ص ٩٣ .

١٩ - أحمد فؤاد الأهوانى ، القيم الروحية فى الاسلام ، القاهرة ، المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٦٢ل ، ص ٤٥ .

٢٠ - المرجع السابق نفسه ، ص ٥٢ .

٢١ - زكى « مبارك ، الاخلاق عند الامام الغزالى ، القاهرة ، دار الشعب
١٩٧٠ ، ص ص ٦٢ - ٦٥ .

٢٢ - أحمد فؤاد الأهوانى ، مرجع سابق ، ص ٦٦ .

٢٣ - محمد أحمد بيومى ، علم اجتماع القيم ، مرجع سابق .
- علم الاجتماع الدينى ، اسكندرية ، دار المعرفة الجامعية .
* راجع فى ذلك كتابات : رفاة الطهطاوى ، الاعمال الكاملة - محمد
عبد ، الاعمال الكاملة .

24. Rokeach, Milton, op. cit., p. 8.

٢٥ - فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، القاهرة ، دار الكاتب
العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ - ص ص ٥٩ - ٦١ .